

# حوار حول الغزل

## شخصيات المحاوره:

- صونيا: صاحبة المنتدى الأدبي سيدة ثرية جميلة مثقفة تملك فكراً ليبرالياً وتؤمن بأن الحرية والعدالة أشياء تستحق أن يناضل الإنسان من أجلها.
- سليمان: مثقف يحمل لواء العقل، وسيادة قوانينه.
- حسام: شاعر مبدع يملك ثقافة موسوعية، محبب.
- ماريان: طبيبة، جراحة عمليات تجميل.
- عائشة: صحفية في مجلة نسائية.
- جونى: صاحب ومدير مسبح بحري.

صونيا: أهلاً بكم في هذا المنتدى المتواضع الذي يفتش عن الحقيقة في جانب منه، ويسقي بذور الجمال علّها تزهر وتثمر في الجانب الآخر. إنه المنتدى الذي يحاكي بلقاءاته الحوارية جوهر الإنسان من حيث هو عقلٌ وجسد، وعاطفةٌ تتذبذب بين الإثنين لأنها بطبيعتها متحركة متغيرة لا تثبت على حال.

حسام: إنها العاطفة التي تنزل الحقائق من عالم مثلها إلى أرض الواقع، وترفع الجسد من ترابية تكوينه إلى عالم المثل. إنها نقطة بيكار الدائرة الإنسانية بالنسبة لأهل الشعر والفنّ والموسيقى والإبداع.

جونى: إنه الجسد في مجد تناسق أعضائه، وبهاء جمال تكوينه، من قال إنه حفنةٌ من تراب الواقع.. هل يوجد في الوجود موجودٌ أكمل منه وأرقى.. هل يوجد في الوجود موجودٌ أدقُّ في تكوينه وأكثر قدرة في فاعليته منه! إنه مجد الربّ تجسد على أرض الواقع المحسوس. إسألوني أنا صاحب مسبح أرى كل يوم مئات الأجساد، وأراقب تكاوين أعضائها عن كثب، أرى ثدي الفتاة وهو يشرئبُ من طوقه ناهداً يتحدى السحاب، أرى الأرداف الممتلئة في روعة تدورها وتكورها، أرى العيون النجلاء التي تحاكي النرجس في إطلالة ربيع متوثب، أرى شلالات من الشعر المنسدل تتأرجح بغنج ودلال وغابات من شجر الحور المتمايل في قوام كل حسناء. لا تنسبوا الجسد إلى التراب هذه خطيئةٌ لا تغفر.

عائشة: أنا لا أشك أن الجسد كيانٌ مقدس وإلا كيف قدر له الربّ أن يكون وعاءاً للنفس العاقلة التي هي قبسٌ من نوره.

سليمان: أنا أيضاً لا أشك أن الجسد كيانٌ مقدس، ولكنه أكثر من وعاء للنفس العاقلة. إنه متناغمٌ بطبائعه مع طبائع النفس العاقلة، الأمر الذي يسمح بتعبير النفس عن ذاتها من خلال جوارحه.

ماريان: ولماذا يصفون الجسد إذن بأنه كهف الشيطان وينبوع الشهوات والنزوات التي تفتن عقل الإنسان حتى تورده التهلكة؟

صونيا: دعونا لا نستطرد في التنظير فموضوعنا اليوم هو الغزل. دوافعه في الظاهر والباطن وموقعه في عالم الشعر والفن. أقول هذا وأنا على يقين أن كل ما تداولتم به في صلب موضوعنا.

حسام: الغزل من الشعر كإنسان العين من العين، كسويداء القلب من القلب. ماذا يبقى من الشعر إذا أسقطنا منه الغزل! مدحُ غايته التكسب يُلبس أثواب الجبابة الأبطال لأقزام صعاليك بغية حفنة من الدراهم. أم رثاءً هو مدحُ مزيفٌ لميت بغية استدرار أموال أهله وليس بغية البكاء عليه. يكفي الغزل شرفاً أنه بخورٌ يُحرق على مذبح الجمال.

عائشة: ولكنه بخورٌ ينبعث منه الكثير من دخان الشهوات المحمومة التي لا تعرف أين حدودها لتقف عندها.

سليمان: لو عرفت الشهوات أين حدودها لتقف عندها لكانت حقاً وليست باطلاً، وانسجاماً مع قوانين الطبيعة وليست مخالفةً ومضادة.

صونيا: هناك من يقول أن الجسد البشري هو أجمل وأكمل كيان أنتجته الطبيعة، فمن حيث الشكل هو يملك الشكل الدائري، أي أنه متساو في الطول والعرض عند انفتاح الذراعين. وكلنا يعلم أن الشكل الدائري هو أكمل الأشكال هندسياً. أما من حيث الوظائف فمن منا لم يقرأ أبحاثاً عن نشاط الدماغ، وبأنه أكبر وأدق كميوتر في الكون، وأنه قادرٌ على استيعاب المعلومات التي تستوعبها كل كميوترات هذا الكون. ولهذا من حقّ هذا الجسد أن يكون مصدر إعجاب فهو يستحق أن يُمدح ويُثنى عليه بتكوينات أعضائه على اختلافها.

ماريان: أنا كطبيبة مختصة في عمليات التجميل أعتقد أنه لو أعطى كل إنسان جسده طعاماً وشراباً وهواءً نظيفاً دون زيادة أو نقصان لكانت كل الأجساد جميلةً بغض النظر عن طولها ولونها ووزنها. وذلك لأن الجسد قبل أن يدخل عليه التلوث والفضلات بسبب مسلكياتنا الخاطئة هو جسدٌ طاهرٌ بطبيعته متناسقٌ بطبيعته والجمال برأيي ليس أكثر من تناسق وطهارة.

حسام: كتبت مرةً قصيدةً لامرأة أحببتها قلت لها: حبك طهارتي جمالك طهارتي. وكنت أعني ما أقول، بل كنت أعيش هذا الإحساس بكل ذرة من كياني وأعتقد صحته بعقلي وقلبي وضميري.

صونيا: ولكنك بإحساسك هذا خلطت بين الحب والجمال وجعلتهما وكأنهما أقنوماً واحداً وليسا أقنومين مستقلين عن بعضهما.

سليمان: لا شيء أعرف بأسرار التناسق أكثر من علمي الهندسة والمنطق، هذا في الأشكال وذاك في الأفكار. ولكن الشعراء الكبار وحدهم عرفوا التناسق في المشاعر التي هي في منزلة بين منزلتين. فهي تلامس حقائق العقل ولا ترقى إليها، وتلامس أسرار الهندسة دون أن تكتشف خباياها. وربما لهذا السبب بالذات أعتبر الشعر أقرب إلى قلوب الناس من المنطق والهندسة، وإلى أذهانهم من الفلسفة.

حسام: ولكن أسرار الطهارة لم يعرفها أحدٌ أكثر من الشعراء. أن تكون المرأة ملاكاً مصفى جوهراً، أن يكون جسدها نوراً كثفته الطبيعة دون أن تفقده شفافيته، أن يكون شعرها شلال مسك وعنبر، أن يتلوى قدها فتتلوى معه العواطف والأحاسيس، أن ينهد الثدي يتحدى المحدود شامخاً باتجاه المطلق، أن تلقي الشمس رداءها على الوجه النقي فيتألق أنساً، أن تكون الترائب كمرآة مصقولة ترى صورتك في حناياها كل ذلك يطهر الإنسان من ترابيته ليجعل منه كوكباً درياً عاقلاً مؤنساً يضيء ذاته ويضيء محيطه.

صونيا: من يسمع كلام حسام يتكلم عن الطهارة ثم يقرأ قصائده المشحونة بالشبق الجنسي الذي يصل إلى حدود الهوس، يقول أن حسام هو إثنين في واحد بل ربما ثلاثة.

عائشة: ليس المهم برأيي أن يرصد الشاعر أدقّ خلجات الطهارة ويعبر عنها، ومن ناحية أخرى أدقّ إنفعالات الشبق ويعبر عنها. بل المهم أن يكون صادقاً في رصده وتعبيره في كلا الحالتين. الصدق هنا هو المعيار وليس أي شيء آخر.

ماريان: المهم أن يرى القارئ جزءاً من مشاعره في المشاعر التي يعبر عنها الشاعر بغض النظر عن أخلاقيتها أو عدم أخلاقيتها. فمعيار الفن هو التعبير الصادق عن المشاعر وإنسانية هذه المشاعر، وليس أحقيتها أو عدم أحقيتها، إستقامتها أو عدم إستقامتها.

جونى: رأيت على شاطئ مسبحى مئات الأجساد العارية، وتأمّلت في تقاطيع جميع الأعضاء كلُّ على حدة حيناً ومجتمعين أحياناً، وانجذبت إلى عشرات السنوات وعاشرت الكثيرات وخرجت بنتيجة واحدة، هي أنّ الإنسان الذي يعيش أحاسيسه بصدق ويعبر عنها بصدق إنسان فاضلٌ وأحاسيسه جميلةٌ مهما كان نوعها ومهما كان تصنيفها. بل إنى أقول أكثر من ذلك ، لا أحد يحقّ له أن يصنف إحساساً صادقاً إنسانياً.

سليمان: لقد تناسيتم جميعاً أن أولى إهتمامات الإنسان يجب أن تتركز على سعيه لتحقيق إنسانيته بغية اكتساب هويته كإنسان. عن وضع الإنسان نصب عينيه أنه كائنٌ عاقلٌ والعقل وظيفته التفكير الحرّ الإبداعي، وظيفته التماهي مع بديهيات المنطق والحقائق الكلية والفضائل البرهانية.

حسام: ولما كان الجسد الأنثوي بروعة تضاريسه ودقة تناسقه وتناغم أعضائه حقيقةً لا يرقى إليها الشك، كان من واجب المرء أن يمجد هذا الجسد الأنثوي ويقدم له قرابين الإحترام والتقدير والإعجاب والإنجاب بكلمات ملونة ذات إيقاع موسيقي ومعان إبداعية أطلقنا عليها إسم غزل.

سليمان: ولكن المرأة ليست جسداً وحسب إنها إنسانٌ له عقلٌ يفكر وإرادة حرّة تقرر ولسانٌ فصيحٌ يعبر، وأحاسيسٌ تنجذب أو تنفر وكل ذلك يجب أن يتناغم مع الجسد المتناسق كي لا نقول أن الحسنات عندنا أشباحٌ بلا أرواح. أو أننا نحن رجال هذا الشرق نتعامل مع النساء كدمى، كأشباح بلا أرواح.

جونى: نحن في واقع الأمر نمتلك ثقافةً شبقيةً، ولا نمتلك ثقافةً جماليةً فكأن القصيدة الغزلية عندنا غايتها إيقاظ غريزة الرجل وتحضيرها لعملية إثارة تنتهي بالتهام جسد إمراة أو بالتهام خيال ذلك الجسد إذا لم تتوفر الظروف للوصول إليه.

عائشة: هذا صحيح لأن التفنن في وصف أعضاء الجسد والتفنن في جعله مثيراً دون الأخذ برأي الطرف الآخر، بل دون الإهتمام بهذا الرأي إني أعتبر ذلك منتهى الوقاحة، أنا أفهم أنه عندما يكون الإعجاب متبادلاً عندها من باب التهذيب واللطافة والذوق السليم أن يتغزل الرجل بجمال جسد صديقته ويصف جمال أعضائها ومدى تأثير ذلك الجمال على حواسه وأحاسيسه.

صونيا: ولكن التجاذب يجب أن يكون طبيعياً وليس مصطنعاً. أي أنه يحصل دونما قرار مسبق بحصوله. عندها يكون صادقاً وإنسانياً لأنه خال من الأعيب التعمد.

ماريان: لم أفهم ماذا تقصدين بالتعمد وأخذ القرار المسبق.

صونيا: عادةً ما يكون الرجل القوي المتمول مغروراً مستكبراً يظن أنه قادرٌ على إخضاع أي إنسان لإرادته. فهو قد تعود ذلك في مركز عمله ومركز نفوذه. وبالتالي يزيّن له غروره أنه قادرٌ على إستمالة أي امرأة جميلة تثيره. وهو يملك الوسائل لذلك، منها ما يبثه أزلامه عنه من دعايات تصل إلى آذان النساء عن إغراق صاحباته بالهدايا والترف الأسطوري هنا يصبح التجاذب مصطنعاً ومتعمداً وقد يخرج عن كونه تجاذباً ليصبح تجارة رقيق بوسائل حضارية.

سليمان: يجب الفصل بين الإحساس الجمالي والإحساس الجنسي فهما موضوعان مستقلان عن بعضهما. وذلك لأن الإحساس الجمالي يولد الخشوع ويوحى بالقداسة التي تقرب الإنسان من الله. بينما الإحساس الجنسي يولد الإثارة والرغبة الملحة بإشباع الشهوات المحمومة.

عائشة: هذا كلامٌ مقنعٌ للناس الذين يعتبرون التواصل مع الله هو لذة اللذات وغاية الغايات لأنه الشيء الذي يطلب لذاته ولا يطلب لغيره كما كان يقول أبو يزيد البسطامي. أما الناس الذين يزنون علاقتهم بالله بميزان الربح والخسارة فهذا الكلام يصبح تنظيراً مثالياً لا يمت إلى الواقع بصلة.

ماريان: من خلال النساء اللواتي أجريت لهنّ عمليات تجميل في تكبير الثدي أو تصغيره وفي إنتفاخ الأرداف وتكورها وفي صقل العنق والترائب. كنت أرى أن

الغاية عندهنّ هي مزيدٌ من الإثارة وجذب الرجال وليس الحرص على التناسق والتناغم بين أعضاء الجسد ليغدو جديراً بأن يكون آلةً للنفس العاقلة كما يسميها سليمان.

حسام: كلّم تتحدثون بلغة المثاليات. فلو زهد الإنسان بالملذات والمقتنيات والجاه لفقد دافعه إلى العمل. فأنا من خلال معارفي أعلم أن أكثر الناس اندفاعاً للعمل والإنتاج هم أكثر الناس إنفاقاً على الملذات وإستعراضات الجاه هذه هي سنّة الحياة.

صونيا: ولكن الإندفاع إلى الملذات والنفوذ والجاه والترؤس هو سمة مشتركة بين الإنسان والحيوان. ألا ترى كيف تتقاتل الحيوانات حتى الموت من أجل أن يرأس كل منها قطيعه، وينفرد وحده بممارسة الجنس مع إناث ذلك القطيع.

جونى: والرجال أيضاً يفعلون ذلك فهم بأموالهم ونفوذهم يحاولون مضاجعة أكبر قدر ممكن من النساء إرضاءً لغرور فحولتهم. ولكنك إذا ما دعوتهم إلى إغاثة مسكين أو معونة يتيم أو دفاع عن كرامة مظلوم إزوروا وارتدوا على أعقابهم خاسئين وكانهم قد حصروا الرجولة فقط في امتطاء ظهور النساء كما يمتطي الراعي ظهر حماره.

سليمان: ولماذا لا تقول كما يمتطي الحاكم المستبدّ ظهور أبناء شعبه، وكما يمتطي رجل الأعمال ظهور عماله وموظفيه، وكما يمتطي الكاتب المأجور لمراكز القوى ظهور الكلمات فيحملها كلّ عفته وخسّته.

صونيا: أستشّف من هذا الكلام أنّ الجمال والعدالة شقيقتان يجري في أعراقهما نفس الدم ويتنفسان نفس الهواء.

سليمان: إنهما ذرية بعضها من بعض، أبوهما العقل وأمهما العاطفة. فإذا كان الجمال بظاهره تناسقٌ وتناغمٌ وبياطنه طهارةٌ وشفافيةٌ فهكذا العدالة هي تناسقٌ بين شرائح المجتمع وطبقاته، وتناغمٌ بين السلطات فيه، وشفافيةٌ في علاقة الحاكم بأبناء شعبه. وإنّي لأعجب من شعراء الغزل الذين تفننوا في تصوير تناسق أعضاء جسد

المرأة كيف لم يفطنوا إلى ضرورة تناسق أعضاء جسد المجتمع. وكيف لم يتحولوا إلى شعراء يغنون مجد الحرية والعدالة والسيادة وتحقيق الإنسان لكرامته الإنسانية.

حسام: مصيبة الشعر العربي أنه عاش في كنف الخلفاء والأمراء والسلاطين لا في كنف جماهير الشعب. بمعنى آخر لم يكن للشعراء جماهيرٌ ترعاهم من جهة ليغنوا مجد بطولاتها وحرّياتها أو يغنوا ألم مصائبها وويلاتها.

صونيا: هذا يعني أنّ الشاعر العربي لم يكن يعبر عن تجربة وجدانية صادقة وعميقة وإنسانية بل كان جلّ همّه أن يرضي وليّ نعمته ليستأثر بعطائه.

حسام: ربما في حالات نادرة كان يعبر عن تلك التجربة كما حصل مع المتنبي وسيف الدولة. لأنّ المتنبي في باطن الأمر كان يفتخر بنفسه ولا يمدح سيف الدولة. كان يرسم لنفسه صورة الإنسان المثل الأعلى وكانت مقدماته الغزلية من أجمل ما قيل في الأدب العربي من غزل.

عائشة: أفهم من ذلك أنّ الكتاب والشعراء العرب مساكين لأنهم لا يملكون جمهوراً يرعاهم أو أنّ الجمهور العربي لم يصل بعد إلى مرتبة القاريء الناقد الذي يستطيع أن يميّز بين النحاس والذهب.

سليمان: لا شيء ينفذ كتابنا وشعراءنا من الإرتهان لمراكز القوى إلا وجود جمهور يرعى الشعراء بالنيابة عن أصحاب مراكز القوى. عندها تتحرّر الكلمة من عقالها الذي ما فتئت مربوطة به منذ ألف سنة ونيّف.

ماريان: ولا تعود المرأة تُعامل كدمية أو جارية جميلة في بلاط السلطان إشتراها من أسواق الرقيق فقيمتها في ساقبها وصرّتها وأردافها وأثائها وليس في أي شيء آخر.

صونيا: دعوني أسأل حسام سؤالاً يقطع عليكم قليلاً سياق حواركم. ماذا أثار إعجابك في غزل المتنبي حتى اعتبرته خارقاً؟

حسام: إذا كنت تتوقعين وصفاً للعيون الحوراء والترائب المصقولة فأنا سأخيبُ ظنك، أجمل ما تغزل به المتنبي برأيي المتواضع عندما وصف حُسن حبيبته قائلاً: تنهى سكون الحُسن في حركاتها. هذا الحُسن الذي بلغ في تطوره مرتبة الكمال في انتظام الحركة وتناغمها مع ذاتها ومع محيطها فجعلها تطمئنُ لكمال جمال انتظامها وتبدو وكأنها سكونٌ وهي ليست كذلك. لعمرى إنه أعظم ما قاله شاعرٌ في جمال المرأة.

سليمان: هذا هو الغزل الراقي الذي يلامس القداسة، جمالٌ نتذوقه بعقلنا وضميرنا وأعلى ملكات إنسانيتنا.

عائشة: وماذا فعلت بالراقي الجمالي عند امرئ القيس وهو من العصر الجاهلي عندما قال:

إذا التفتت نحوي تضحو ريحها

نسيم الصبا جاءت برياً القرنفل

جونى: لا شك أنّ هذا غزلاً راقياً يختزن طهارة جسد المرأة.

ماريان: نحن نعيش اليوم ثقافة عصر الإستهلاك فكل شيء هو برسم التسويق. والذين يستهلكون الشعر الغزلي هم بمجملهم سماسرة الأرض والعرض وتجار الممنوعات والمغتربين المغامرين فهم رواد المطاعم والملاهي وهم الذين يطلبون غزلاً يثير غرائزهم وهم يشربون العرق ويلتهمون اللحم النيء ويرقصون على قرع الطبول لينهوا سهرتهم بين أحضان بائعة هوى أو زوجة تتشبه بمسلكياتها ببائعة الهوى لأن هذه هي البضاعة التي ترضي زوجها أو عشيقها.

حسام: هذا صحيح فمستهلكو الشعر اليوم ليسوا المثقفين العارفين بجماليات اللغة وأسرار بلاغتها بل هم كما قالت ماريان أصدقاء الكاس والطاس والطبل والمزمار. والشعراء يبيعونهم من بضاعتهم، حتى أنّ بعض الشعراء أصبحوا مقدمي برامج نكات ماجنة تسبق وصلات الأغاني لمزيد من الإثارة.

صونيا: هل يحقُّ لنا أن نقول أنّ الغزل في بداياته كان تغنياً بجمال الآلهة ولذلك كان يعتبر من الترانيم القدسية التي يرندح بها الكهان في الهياكل أمام تماثيل آلهات الحب والجمال والخصب. ثم أخذت الشعوب تنتخب آلهات حبها وجمالها صبايا من بني البشر عندها أصبح الغزل مديحاً لتلك الصبايا العذراوات اللواتي تحولن بين ليلة وضحاها إلى آلهة وأصبح تقديس أجسادهنّ من الواجبات الدينية والاجتماعية.

ماريان: ألا تلاحظون أنّ رسامي عصر النهضة في أوروبا صوروا القديسات شبه عاريات وتعمدوا إظهار عري الأثداء والأفخاذ كمظهر من مظاهر الجمال المقدس وليس كمظهر من مظاهر الإثارة الجنسية.

حسام: ألم يكن إمرؤ القيس وهو يصف كل عضو من أعضاء خليلته بيضة الخدر يقصد أن يرسم للعرب بالكلمات صورة لإلهة الحب والجمال تيمناً بغيرهم من الشعوب.

جونى: تريد أن تضع بيضة الخدر في نفس المقام مع أفروديت وإيزيس وعشتروت.

صونيا: ألم تتشوه تماثيل أفروديت وإيزيس وعشتروت وبقيت بيضة الخدر على جلال جمالها قبلة كل شعراء الغزل بأوصافها ومحاسنها.

سليمان: أعتقد أنّ شعوب ما قبل الميلاد كانوا أكثر نضجاً إنسانياً من شعوب ما بعده. لم يكن هناك عنصریات فاشية، لم يكن هناك قوميات شوفينية، لم يكن هناك أنظمة بوليسية، كان مقياس الفضيلة والرذيلة، الحقّ والباطل قوانين الطبيعة ومنطق العقل، لم تكن تصرفاتهم تقف تحت مظلة الخوف من الحرام والحلال والرغبة بالجنة أو الرهبة من جهنم. هل يستطيع أحدٌ أن يقارن أثينا قبل الميلاد بأثينا ما بعده، روما قبل الميلاد بروما ما بعده، إسكندرية قبل الميلاد بإسكندرية ما بعده، بيروت قبل الميلاد ببيروت ما بعده.

حسام: في تلك الأزمنة كان للجمال آلهته وللعدالة آلهتها وللحكمة آلهتها. كانت الجماهير تتعامل مع الجمال بقدسية وشفافية وخشوع. كان الإنسان بطباعه أكثر توازناً، فالعقل والعاطفة والغريزة مثلت متساوي الأضلاع لا يوجد أيّ تناقض أو

صراع أزداد بين زواياه. كان الناس أكثر أخلاقية إذا ما اعتبرنا الأخلاق مروءة وفروسية ورجولة وكرم وشجاعة وحكمة.

صونيا: أتى اليونان إلى الشرق فنشروا فلسفتهم وعلمهم ومنطقهم، وبنوا المدن والمدارس فتفاعلت الثقافات وتزاوجت الحضارات. وأتى الرومان فنشروا سلامهم العميق وفكرهم الليبرالي وعدالتهم فانصهرت الشعوب حتى أنّ روما استقبلت أباطرةً من بلادنا وكانت مدارس بيروت مترادفة مع مدارس روما وأفروديت متضامنة مع عشروت وجوبيتير مع أدونيس.

ماريان: لم تكن القرارات المصيرية في يد الغوغاء آنذاك. كان للشعوب حكماؤها وللعدالة فلاسفتها وللجمال شعراؤه الحقيقيون.

عائشة: لقد ذهبتم بعيداً، لماذا لا نطلب من كل واحد فينا أن يقدم مقطوعةً غزليةً ننهي بها حوارنا هذا.

حسام: تعوّدنا أن نسمع لرجال يتغزلون بنساء ولم نتعوّد على النساء يتغزلن برجال.

صونيا: عش رجباً ترى عجباً ولكن من قال لك أننا سنتغزل برجال فقد نتغزل بأهة ولكن بمن نبداً.

ماريان: طبعاً بالرجال وإني هنا لأتعجب كيف أنّ سليمان الرجل الوقور الحكيم سيكون قادراً على التغزل.

صونيا: إذن فليبدأ سليمان وأنا متأكدة أنه سيتغزل بأفروديت وليس بواحدة من بنات البشر.

سليمان: حبيبتى ومولاتي المعبودة. بعزة هواي الذي هوى من عليائك، وبعزة ذلي في هذا الهوى، وبهذه الخدود التي تمرغت رقّةً وصبايةً فسمت ودخلت عالم اللطافة. حبيبتى هبيني جذوةً من نار أنوثتك المقدسة تلك النار التي جعلتها برداً وسلاماً في قلبي.

إيه يا حبيبتى لأحاسيس قلبي الراعف كلما ذكر إسمك الذاكرون، فكم لمعت في أفقه بروق النشوة وقصفت رعود الوجد، وكم روضة بهذا القلب انتشت بذكراك ورويت خمائلها بسحائب الشوق اليك، وفاحت نسائم عطرها بأعراف أزهار حنينها.

فلته هذا الجمال بك يا حبيبتى فكم أضلني وهداني وكم أقصاني وأدناي. أنت التي أشعلت في قلبي شوقاً من لذة ما أدركت من جمالك لطلب ما لم أدركه بعد. أنت التي لم تكشف عن جمالها جميع حجبها، رحمةً بعقلي وإلا صعق، ورحمةً بقلبي وإلا التهب وغداً رماداً لا يصلح لشيء.

حبيبتى.. من نعمك عليّ أن أقمت قلبي على حبك وعلى ما لم أستطع له إعلاناً، لأن جمالك كل يوم هو في شأن، بعضٌ منه يتناها وبعضٌ آخر يتولد. أنقذوني أيها الأصدقاء.. هل سمعتم بعاشق كلما سقاه الحبيب من رضاب شفثيه زاده شوقاً إليه فازداد ظمأً، وكلما ازداد ظمأً شرب. وهو ما برح يشرب وما برح يظمأً وما برح يزداد شوقاً.

جونى: لم أسمع في حياتي كلاماً أرقى وأسمى مع أنني لم أفهم نصف ما قلت على الأقل ولكني تذوقته بحاستي السادسة.

عائشة: أنت يا صديقنا سليمان تناجي ولا تتغزل وصاحبتك كما قالت صونيا من بنات جبل الأولمب وليست من بنات والدنا آدم. والسبك اللغوي كان فخماً وملكياً لا يمتُّ إلى لغة عامة الشعب بصلة وكأنك تشبهت بالمتنبي وهو يقول: أنام ملء جفوني عن شواردها. فهل طاب لك أن تتغزل بلغة الشوارد لتدهشنا كي لا نقول لتستعلي علينا!

ماريان: أراك يا صديقنا سليمان أعطيت فنّ القبله ما لم يعطه إنسٌ ولا جان. فأن تشرب من رضاب شفثي الحبيب فتزداد شوقاً إليه وزيادة الشوق تولد زيادة الظمأً وزيادة الظمأً تتطلب بدورها الشرب من جديد وكل ذلك إلى ما لا نهاية هذا لعمرى أعجب ما سمعته عن لذة القبله.

صونيا: هذا الجمال الذي لم يكشف كل الحجب عن جوهر ذاته كي لا ينصعق عقل الحبيب ويحترق قلبه وتشرذ حواسه. وهذا الشوق المشتعل في قلب المحب من لذة ما أدرك من جمال محبوبه لطلب ما لم يدركه بعد. وعزة الذل في الهوى آه ليت هذا الهوى موجّه لواحدة من بنات البشر لكنت أغبطها على سعد حظها.

حسام: أتوجّس أن تكون صاحبة سليمان امرأةً من لحم ودم ولكنه يخفي ذلك تحت جبة الغزل الصوفي كما كان يفعل ابن الفارض.

جوني: دعونا نتابع السير في سياقنا، الآن دور حسام.

حسام: الغزل ليس معاني مبتكرة وصور إبداعية وتجربة صادقة فقط. إنه وزن وإيقاع وموسيقى داخلية تنبعث من تآلف الحروف داخل الكلمة وتآلف الكلمات داخل العبارة ولذا سأكلّمكم بلغة الإيقاع والتآلف وأقول شعراً موزوناً مقفياً.

عابثيني عانقيني قبلي  
حركي في جموداً زلزلي  
مزقي عنك ثياب الخجل  
أخرجي من عتم ذاك المعقل  
فجري المعلول فوق العلل  
أنقذيني من بكاء الطلل  
يعدل الحُسن بأن تعتدلي  
لأضاليل الغرام الأول  
أقتل العقل بسيف الخبل

راعها إن قلت في يوم لها  
أوقدي النار بقلبي لهباً  
أسقطي فوق شفاهي فرحاً  
حرري الإحساس من محبسه  
يا فتاتي عربدي لا تستحي  
دمري التقليد في أصنامه  
بادري في ثورة الحُسن فما  
أيُّ ذنب أن أشواقني هفت  
أيُّ ذنب أنني في لهفتي

صونيا: أنا أفهم وضعيّة المرأة الشرقية التي حبسوها في بيت الحريم منذ ألف سنة ونيف. وأفهم تحريض هذه المرأة على التمرد والثورة لتعود وتستعيد هويتها الإنسانية ولكنني أخاف على رجال هذا الشرق ونسائه أن يظنوا أنّ الهوية الإنسانية هي عقلٌ محافظٌ سلفيٌّ في تفكيره وجسدٌ متحررٌ غربيٌّ في مسلكيته. ما نحتاج إليه اليوم هو عقلٌ متحررٌ ثائرٌ على كل القيود التي تحدُّ من تفكيره وجسدٌ وقورٌ معتدلٌ في إقباله على عصر تسويق الملذات المادية.

سليمان: ولكن حسام أبدع في تفجيرهِ للمعلولات فوق عللها. ولا أظنه كان خسيساً في دعوته لفتاته بأن تخلع عن وجهها برقع الحياء وتبادر إلى الملذات بجموح ناقة صحراوية. إنها ردة فعل صادقة لكبت مزمن. وإذا كان حسام ليس مكبوتاً في وعيه فهذا لا يعني أنه ليس مكبوتاً في لا وعيه، أو لنقل إنه يعبر عن لا وعي الجماعة.

عائشة: مهما دافعتم عن حسام فلن تستطيعوا انتشاله من قفص الإتهام بالهوس الجنسي.

جونى: بالله عليكم دعونا نتابع ما بدأناه، الآن دور عائشة.

عائشة: لقد قلنا الرجال أولاً.

جونى: أنا رجلٌ أعيش الشعر ولا أكتبه. لست مضطراً إلى الجموح فملذاتي أمارسها بهدوء وطمأنينة، أنتقل كالبلبل من وردة إلى وردة، لا أرى في ذلك أيّ حرج فأنا لم أتزوج لأكون مسؤولاً أمام زوجتي ولم أنجب كي لا يقال حمّل أولاده حملاً ثقيلاً يخجلون منه أمام الآخرين. إنى أعيش قناعاتي فأنا أتلذذ بمساعدة الفقراء والتبرع للمنح المدرسية ومديد العون للأرامل واليتامى. وأتلذذ أيضاً بصحبة الحسنات اللواتي خلعن برقع الحياء عن وجوههن وأتلذذ بمعاقرة الخمرة والرحلات البعيدة وأرسم بعض أحاسيسي في بعض الأحيان. والآن دور عائشة.

عائشة: أنا صحفية أعمل في مجلة نسائية وأقابل كل يوم عشرات النساء اللواتي يعرضن مشكلاتهن بغية إيجاد الحلول المناسبة. علمني هذا العمل المتواصل أنّ المرأة الشرقية امرأة خائفة باستمرار ومع الخوف كما تعلمون يضيع منطق العقل ويبدأ التوهان. ولذلك المرأة الشرقية الخائفة تخطب في علاقاتها مع الرجال خبط عشواء، ساعة تعربد وساعة تتصوف، مرةً تجمع ومرات تزهد، وفي كل الحالات تصرفاتها ردّات فعل وليست فعلاً ينبع من عندانياتها. المرأة الشرقية لم تنضج بعد للوصول إلى مرحلة الحب والتغزل بالحبيب، إنها لا تطلب إلا الاستقرار والطمأنينة، وهذا غير متوفر.. مرةً باسم قوانين القبيلة والعشيرة والعائلة، ومرةً باسم طقوس الطائفة وتقاليدها وأعرافها، المرأة الشرقية لا تتغزل إلا بالاستقرار والطمأنينة صدقوني.. قد تعربد حيناً وتتهتك أحياناً ولكن هذا كله شواذ القاعدة في

حياتها وليس القاعدة. إنها مسكينةٌ مستضعفةٌ لا تملك القرار المستقل المسؤول فكيف تريدونها أن تتغزل بالحبيب ويكون غزلها تجربة إنسانية صادقة وعميقة.

جونى: لا نريد أن نعلّق، الآن دور ماريان.

ماريان: المرأة الشرقية كما لمحت لذلك عائشة تفعل ما يُطلب منها أن تفعله، وتقول ما يلذ للآخرين سماعه. وهي في كلا الحالتين لا تعبّر عن ذاتها ولهذا هي غير صادقة. هنا دعوني أقول رأياً أعتقد صحته وإن كان قاسياً.

كل إنسان غير صادق هو إنسانٌ غير شريف المرأة الشرقية غير صادقة بحكم الضرورة فهي لا تعبّر عن ذاتها فكيف تكون شريفة حتى لو صانت جسدها. لقد سمحت للآخرين أن يستبيحوا عقلها وروحها وضميرها فماذا بقي منها لكي تصونه؟ من هنا أقول أنه لا يحقّ لأي شخص أن يتغزل بالحبيب رجلاً كان أم امرأة إلا إذا كان شخصاً حراً عاقلاً يملك القرار المستقل. وهذا لا يتوفر في الشرق وخصوصاً للنساء. وكذلك في ظلّ الأنظمة الديكتاتورية التي تصدر الحريات والعقول لا يتوفر للرجال أيضاً. لهذا السبب أنتم ترون الشعراء في مجملهم يرددون نفس المعاني والصور القديمة كمن يعلك الصوف. ولكن بالنسبة لي سأسمعكم غزلاً بالحبيب وسأفاجئكم بأني أكتب شعراً كي لا تقولوا أنّ الأطباء لا يعترفون إلا بما يقصونه بمقصهم.

هل أنت من جنس البشر  
أم أنت وهمٌ للنظر  
شفتاك يا ابن القدر  
شلال خمر ينهمر  
أم شبق أنغام الوتر  
أم ماء ورد يُعتصر  
هلا عرفت بأنك  
خطرٌ يقود إلى خطر  
أغويتني بالمرجى

أغريتنني بالمنتظر  
هل قبلةً لي منهما  
تجعل ثغري ينصهر  
ألهبتنني أحرقتني  
فالقلب يقذف بالشرر

سليمان: أغويتني بالمرتجى أغريتنني بالمنتظر.

كلّ أبناء المعمورة أغواهم المرتجى، فكانت أرجلهم تغرق في وحول المشاكل المعيشية والأمنية، وخيالاتهم تطلق في أجواء المرتجى وتبني لهم قصوراً من المرجان والياقوت والزمرد، تتجول فيها الحور العين والغلمان المرد وتعص بملذات لا عين رأت ولا أذن سمعت. وكلّ أبناء المعمورة أغراهم المنتظر، هذا المنتظر الذي تعددت أسماؤه وبقي جوهره واحداً لا يتغير.

حسام: هذا يذكرني بعبارة للشاعر سعيد عقل يقول فيها:

أجمل من عينيك حبي لعينيك.

عائشة: منذ آلاف السنين والناس تنتظر الحرية والعدالة والكرامة والمساواة، وأظني سينتظرون آلاف السنوات الأخرى.

جونى: هذا لأنّ الحرية والعدالة والكرامة والمساواة نحن نصنعها بأيدينا إذا أمنا بمصداقية طروحائنا وناضلنا من أجل تحقيق ذلك بكل ما نملك من قوى عقلية ومادية.

ماريان: دعوا صونيا تنهي حوارنا هذا فهي البداية وهي النهاية.

صونيا: مرةً كتبت في دفتر مذكراتي، وكان ذلك قبل عشرين سنة ونيف، خاطرتين كانتا ثمرة علاقة رومنطيقية شفافة قلت في الاولى:

عيناك أنزلت على قلبي غيث الراحة والإطمئنان.

وفي الثانية:

لهفي على الذين أبعد الحب مداركهم وفرش بالأحلام مسالكهم فنعموا بحبهم ولا  
زالوا بهذا الحب يتنعمون.

كمال يوسف سري الدين